مصارع الخلفاء

مشاهد رائعة ينقلها عن التاريخ

ك . ك

ويا دهر لحاك الله ، ما هنأت فرحانك

« أبو العلاء »

مصرع الوليد الثاني (١)

« ويقال أنه لما أحيط به ، دخل القصر وأغلق بابه ، وقال :

دعوا لي «هندا» و«الرباب» و«فرتنى» ومسمعة ، حسبي بذلك مالا

خذوا ملككم ، لاثبّت الله ملككم فليس يساوي — بعد ذاك عقالا

وخلوا سبيلي (قبل عير وماجرى (٢)) ولا تحسدوني أن أموت هزالا

فألب عن تلك المنزلة أبي ألب ، ورؤي رأسه في فم كلب .

كذلك نقل بعض الرواة ، والله القائم بجزاء الغواة »

« رسالة الغفران »

---

(١) أو الوليد الفاسق كما يلقبونه (٢) مثل يضرب للسرعة ، ومعنى الابيات « اتركوا لى هذه الاشياء ، ثم خذوا الملك منى بعد ذلك ، فانى أتركه لكم فى الحال مكتفياً بها ، ولا يهمكم من أمرى شيء بعد

١

المأمة تاريخية

ماذكرت مصرع الوليد ، الا ذكرت معه مصرع الدولة الاموية الوشيك ، وذكرت كيف تنجز الثورات الداخلية ما عجزت عنه الثورات الخارجية ، وكيف تقضي الحروب الأهلية على دولة قوية لها ماض مجيد في الفتوحات والانتصارات الباهرة ، دولة تمكنت من البطش بأقوى الثائرين وأشدهم مراسا وأصلبهم عود

ولكن المطامع والاحقاد التي شبت في جوانح أفراد هذه الاسرة مدة الوليد وبعده عرفت كيف تنهك هذه الدولة وتقودها الى الدمار ، ثم تسلمها لقمة سائغة بعد قليل من الزمن ، الى العباسيين المتطلعين الى الملك .

ولقد تنبأ العباس (ابن عم الوليد) بهذه العاقبة ، ودل على اصالة رأيه وبعد نظره ، اذ عنف أخاه يزيد أشد تعنيف ، وحذره من اثارة الفتن حين رآه متطلعا الى الخلافة راغبا في الانتقاض على الوليد ، واغلظ له القول ، ثم تمثل قائلا :

اني أعيذكم بالله من فتن ... مثل الجبال ، تسامى ، ثم تندفع
ان البرية قد ملت سياستكم ... فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا
لا تلحمن ذئاب الناس أنفسكم ... ان الذئاب اذا ما الحمت رتعوا
لا تبقرن بأيديكم بطونكم ... فثم لا حسرة تفني ولا جزع

ولقد صحت نبوءته ، وتحقق صدق ماتمثل به من الشعر ، ووقع كل ما قال .

* * *

لقد أساء يزيد بن عبد الملك الى ابنه الوليد — عن غير ما قصد — أيما اساءة ، اذ أسند الامر من بعده الى أخيه هشام ، ثم أدرك خطأه فيما بعد وندم أشد الندم ولكن بعد فوات الفرصة

لقد استخلف أخاه هشاما حين بلغ « الوليد » احدى عشرة سنة ، فلما بلغ خمس عشرة ، ندم على تسرعه

قالوا :

« وكان اذا نظر الى ابنه الوليد قال :

الله بيني وبين من جعل هشاما بيني وبينك »

وفي هذه الجملة كل معاني الحسرة والندم !

وبعد أن مات « يزيد بن عبد الملك » بدأ ، هشام بتعظيم الوليد ، ثم داخله الطمع فأراد استخلاف ابنه بعده ، فلما رأى الوليد حجر عثرة في طريق مطامعه ، أراده على ذلك ، فابى ، فطلب اليه أن يستخلف ابنه بعد خلافته ، فأبى الوليد ذلك أيضا .

هنا حقد هشام على ابن أخيه ، وتنمر الوليد ، وأخذ يملأ الدنيا تشنيعا فأقصاه عنه ، واضطهد أصدقاءه والمقربين اليه ، ونكل ببعضهم تنكيلا [١] ، ومات هشام وفي فؤاده حسرة من الوليد [٢]

---

(١) وفى ذلك يقول الوليد كلاما كثيرا ، نختار من أجمله قوله :

(من يثق بالناس ، ومن يصطنع المعروف ، هذا الاحول المشئوم (هشام) قدمه أبي على أهل بيته ، فصيره ولي عهده ، ثم يصنع بي ما ترون : لا يعلم أن لي في أحد هوى الاعبث به !)

وقوله من كتاب بعث به الى هشام :

رأيتك تبني جاهداً في قطيعتي ... فلو كنت ذا إرب لهدمت ما تبني

تشير على الباقين مجني ضغينة ... فويل لهم ان مت من شر ما تجني

كأني بهم ، « والليت » أفضل قولهم ... « ألا ليتنا » والليت اذ ذاك لا تغني

كفرت يداً من منعم لو شكرتها ... جزاك بها الرحمن ذو الفضل والمن

(٢) وليس أدل على ذلك من قوله لبعض خواصه ذات يوم :

« أترى الناس يرضون بالوليد ، ان حدث بي حدث ؟ »

قال : « بل يطيل الله عمرك يا أمير المؤمنين ! »

قال : « ويحك ! لا بد من الموت ! أفترى الناس يرضون بالوليد ؟ »

قال : « يا أمير المؤمنين ! ان له في اعناق الناس بيعة ! »

فقال هشام :

لئن رضي الناس بالوليد ، ما أظن الحديث الذي رواه الناس : (ان من قام

فلما آل الأمر للوليد ، كان أول همه الانتقام والتمثيل بأعدائه حتى كال لهشام المد صاعا [١] وانتقم لنفسه من ابناء أخيه وأهله وأنصاره ، انتقاماً أحفظ عليه أسرته

وما زال يمعن في التنكيل باعدائه ، ويمعنون في التشهير به و نشر الدعاية ضده وعلى رأسهم « يزيد بن الوليد » الذي اتخذ من ظهوره بالنسك أمام الناس ومحبتهم اياه وسيلة لتبغيضهم في الوليد ، فما ترك فرصة للتشنيع عليه الا انتهزها ، ولا عرض ذكره الا لقبه بالفاسق

قالوا :

وكان يظهر النسك ؛ ويتواضع ويقول : « ما يسعنا الرضا بالوليد ! »

حتى أدرك إربته ، وألّب الناس ضـده ، رافعاً أمامهم علم الثورة التي انتهت بالفتك بالوليد ، وانتقال الامر الى يزيد .

وهكذا تضافرت الظروف على هلاك الوليد و نال أعداؤه منه مايريدون ، وقد يمكن تلخيصها جميعاً فيما يلي

١) تهتك الوليد واستهتاره ، وميـله الشـديد الى مراغمة الناس ومجاهرته بعصيانه وآثامه ، واحتقار ماتواضعوا على احترامه

٢) استغلال خصومه هذه الناحية منه واذاعة سوآته مكبرة مبالغاً فيها ، ناخين في أبواق الفتنة ، مستثيرين حمية الناس لتنفيرهم منه ، وقد كان ألد خصومه وأشدهم

بالخلافة ثلاثة أيام لم يدخل النار) الا كاذبا

ولم ينس حقده على الوليد حتى فى ساعته الاخيرة فى وقت احتضاره ، حين صار فى حد لا ترجى الحياة لمثله ، فقد افاق — كما يقولون — افاقة ، فطلب شيئا فمنعوه ، فقال :

« أرانا كنا خزانا للوليد » ومات

(١) وفى ذلك يقول :

ليت هشاماً عاش حتى يرى ... مكياله الاوفر قـد أترعا

كلنـاه بالصاع الذى كاله ... فمـا ظلمنـاه به أصبعـا

وما أتينـا ذاك عن بدعـة ... أحـله الفرقان لى أجمعـا

تشهيراً به اثنان ، هشام قبل خلافة الوليد ويزيد بعدها

٣) ثقة الوليد بنفسه وشدة اعتداده بقوته ، الى حد أنه أغفل معه كل احتياط لدرء الفتنة والقضاء على دسائس خصومه وهي في مهدها ، قبل أن تستفحل وتصل الى هذا الحد .

وقد فصلنا هذه النقط في كتاب مصارع الخلعاء (الذي لم يطبع بعد) واجتزأنا منها بهذه الاشارة الموجزة

الثورة

شجاعة الوليد

قالوا :

« كان الوليد شديد البطش ، طويل أصابع الرجلين ، وكان يوتد له سكة حديد فيها خيط ، ويشد الخيط في رجله ثم يثب على الدابة فينتزع السكة ويركب — ما يمس الدابة بيده »

قالوا :

ولما اندلعت نيران الثورة التي شبّها « يزيد بن الوليد عليه ، وبلغه ذلك ، أمر أصحابه فأخرجوا سريرا ، وجلس عليه ، وقال :

« أعليّ توثب الرجال ، وأنا أثب على الاسد ، وأتخصر الافاعي ؟ »

* * *

وهذا قليل من كثير مما يحدثنا به التاريخ عن شجاعته ورباطة جأشه ولكن ماذا تجديه شجاعته في مثل هذا المأزق الحرج ، وماذا تغنيه قوته ورباطة جأشه أمام هذه الجموع الزاخرة المتألبة عليه ؟

ماذا يفعل وقد خذله أنصاره ، وتفرق عن نصرته رجاله ، وتم الامر أو كاد ، لخصمه يزيد بن الوليد » الذي عرف كيف يشهر به ، ويذيع مخازيه وآثامه مكبرة مجسمة في الآفاق ، حتى بلغ اربته ، وبايعه أكثر الناس !

ليس أمامه غير الهزيمة ، ولكنه لم يشأ أن يتعجلها ، وأبى الا الثبات لعل فيه

خرجا ، ولم تخنه شجاعته في هذا الظرف العصيب ، فخرج محاربا مستبسلا في دفاعه :
وقد ظاهر بين درعين . كما يقول المؤرخون — وأتوه بفرسيه السندي والزائد ؛ فقاتل أعداءه قتالا شديدا »

انخذال الوليد

ولكن رجلا من أعداء الوليد ناداهم :

« اقتلوا عدو الله قتلة قوم لوط ! ، ارموه بالحجارة ! »

فلم يكد يسمع ذلك ، حتى شعر بالخيبة ، وأدرك أن أمره وشيك الزوال ، وعلم أن ليس في استطاعته أن يصد هذه الجموع المتألبة الملتهبة حماسا ، وان الدفاع في هذا الموطن معناه الدمار

فلجأ مضطرا الى الانسحاب ! فدخل القصر ، وأغلق الباب ، ولكن أعداءه أحاطوا بالقصر

محاسبة الوليد

قالوا :

فلما رأى الوليد هذه الجموع الزاخرة ، دنا من الباب فقال :

« أما فيكم رجل شريف له حسب وحياء أكلمه ؟

فقال له أحدهم : « كلمني »

فقال له : من أنت ؟

قال : « أنا يزيد بن عنبسه السكسكي ! »

قال : « يا أخا السكاسك !

ألم أزد في اعطياتكم ؟ ألم أرفع المؤن عنكم ؟ ألم أعط فقراءكم ؟ ألم أخدم زمناكم ؟ »

فقال :

« انا ما ننقم عليك في أنفسنا ، ولكن ننقم عليك فى انتهاك ما حرم الله وشرب الخمر ، واتيان أولاد أمهات أبيك واستخفافك بأمر الله! »

قال :

« حسبك يا أخا الكاسك ، فلعمري لقد أكثرت وأغرقت ! ، وان فيما أحل لي لسعة ! »

ثم قال : « لعمري لقد أكثرتم وأغرقتم ! أما والله لا يرتق فتقكم ، ولا يلم شعثكم ، ولا تجمع كلمتكم ! »

الساعة الاخيرة

تقسم كسرى رهطه بسيوفهم وأمسى أبو العباس(١) أحلام نائم
وقد كان لايخشى انقلاب مكيدة عليه، ولاجري النحوس الاشائم
مقيما على اللذات حتى بدت له وجوه المنايا حاسرات العمائم !
وقد ترد الايام غراء وربما وردن كلوحا ، باديات الشكائم !

« بشار بن برد »

وكذلك حان مصرع الوليد ، ودقت ساعته الاخيرة ، مؤذنة بذهابه من هذا العالم الى العالم الثاني .

وهنا يحدثنا الرواة ؛ فيقول أحدهم :

ان الوليد رجع الى الدار ، فجلس وأخذ مصحفا وقال :

« يوم كيوم عثمان »

ونشر المصحف يقرأ »

وفي هذا المنظر مافيه من الروعة ، اذا تمثلنا المنظر الآخر المقابل له ، وأجلنا الفكر فيما بين الموقفين من التباين الشديد .

فهو هنا يتعزى بقراءة المصحف وهو يشعر بدنو أجله وقرب ساعته الاخيرة

وهو هناك يقرأ المصحف شامخا مستكبرا تيها ، وأمره في تمامه ! فيرى فيه قوله تعالى : « فاستفتحوا وخاب كل جبار عنيد »

فيشتعل غيظا وحقدا ، وتأخذه العزة بالاثم ، فيمزق المصحف ويلقي به الى الارض .

(١) كنية الوليد (٢) اى سريعا

ويخرقه بالنشاب ، ثم ينشد غاضبا .

أتوعد كل جبار عنيد فها أنا ذاك جبار عنيد
اذا ما جئت ربك يوم حشر فقل يارب ، مزقني الوليد ! »

الا شتان ما بين المنظرين !!

• • •

على أن الوليد ، لم يلبث أن علاوه شيء من صلفه وشجاعته ، فلم يرض لنفسه استخذاء الذليل أمام الموت ،

قال أبو العلاء يحدثنا في رسالة الغفران عن الوليد في هذه الساعة فيقول :

« ويقال أنه لما أحيط به دخل القصر ، وأغلق بابه ، وقال :

دعوا لي «هندا» و«الرباب» و«فرتنى» ومسمعة ، حسبي بذلك مالا
خذوا ملككم ، لاثبت الله ملككم فليس يساوي بعد ذاك عقالا
وخلوا سبيلي (قبل عيروما جرى [٢]) ولا تحدوني أن أموت هزالا

فألب عن تلك المنزلة أي ألب ، ورؤي رأسه في فم كلب ! »

• • •

كيف قتل

رواية شاهدعيان

قال من شهد هذا المنظر الرائع :

نظرت الى شاب طويل على فرس ، فدنا من حائط القصر ، فعلاه ثم صار الى داخل القصر !

فدخلت القصر ، فاذا الوليد قائم في قميص قصب ، وسراويل وشي ، ومعه سيف في غمد ، والناس يشتمونه

وقال شاهد آخر :

وكان أول من علا الحائط هو عنبسه السكسكي ، فنزل اليه ، وسيف الوليد الى جنبه ، فقال له : « نح سيفك »

فأجابه الوليد :

لو أردت السيف لكانت لي ولك حالة غير هذه

فأخذ الوليد فنزل من الحائط عشرة

قال بعض الرواة :

ومضى الوليد يريد الباب ، فضربه أحدهم على رأسه ، وتعاوره الناس بأسيافهم ، فقتل .

وطرح أحدهم نفسه عليه يحتز رأسه (١)

كيف مثلوا به ؟

قالوا :

وأقبل آخر فسلخ من جلد الوليد قدر الكف . ثم انتهب الناس عسكره وخزائنه

وقد أمر (يزيد) بتنصيب الرأس ، فقال له بعض خواصه (واسمه ابن فروه) — « انما تنصب رؤوس الخوارج ، وهذا ابن عمك وخليفة ! ولا آمن ان نصبته أن ترق له قلوب الناس فيغضب له أهل بيته !

فقال :

« والله لأنصبنّه ! »

ونصبه على رمح ، ثم قال :

انطلق ، فطف به مدينة دمشق ، وأدخله دار أبيه »

ففعل ، ثم صاح الناس واهل الدار وانزعجوا من ذلك اشد الانزعاج

وكذلك اسدل الستار على حياة هذا المستهتر الجبار ! وسيرى القارىء في العدد القادم فصلا ممتعا عن مجونه واستهتاره والى اي مدى وصل اندفاعه في سبيل الخلاعة والفجور .

---

(١) وكان يزيد قد جعل في رأس الوليد مائة الف